سبيل إلى معرفة الله

تامر جابر محمود

في ثلاثة الأجزاء السابقة من هذا المبحث، تناولنا ببساطة ودون تكلف، العلاقة بين الواجِد الأعظم والوجود بموجوداته، والعلوم المسماة بالتجريبية، والشريعة. واليوم، يتبقى لنا ملمح أخير تطبيقي وهام، لاستكمال هذه الرؤية. ويعبر الكاتب في نهاية المبحث عن عميق امتنانه لهذا المنبر الفاضل الذي أتاح له التواصل مع القارئ الكريم، وعن انعقاد لسانه عن الكلام شكراً للقارئ الذي تابعه عبر مقالات ثلاث هذا رابعها. فكل الشكر للمنبر والقارئ. ولنشرع:

كل معادلة كيميائية وفيزيائية وبيولوجية بل ورياضية، تُوَثِّقُ أثراً لاسم أو صفة إلهية. قال العالم الفذ ستيفن

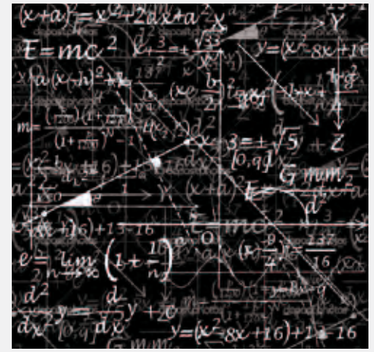

تُمثل كل معادلة علمية أو رياضية ، توصيفاً للكون والوجود ، وبذا تكُون دلالة مباشرة على مرادات الله من عملية الخلق

هوكنج ذات مرة «يُمثِّلُ التوصيف الرياضي للعالم الفيزيائي، قراءةً لذهنية الخلق». ومعنى الكلام أنه ما من وسيلة لكشف خطة الخلق بما انطوت عليه من حِكَم وعلوم وما إلى ذلك سوى المعادلة الرياضية التي ترصدّ هذا كله، وتكشفه في صورة لا يختلف عليها اثنان. إلا أن المسلمون انشغلوا بالمساجلات الكلامية ومعارك الهواء الطاحنة، وتركوا آلافاً من سطور الحكمة سطّرتها حكمة..الخالق العظيم في تلك المعادلات بلا تكلف ولا تقعُّر، فبيَّنت حكمته وعدله

وإبرائه وعلمه ... الخ، ودون حاجةٍ لخلافٍ أو فذلكة فارغة.

ورغم هذا الديوان الكوني الثري بين أيدينا، لم يُتعب واحد من المسلمين نفسه في البحث عن تفسير واحدة من هذه المعادلات العلمية، رغم أنها تُنبِّئ عن الله بكلّ ما أشار إليه القرآن وندب له. ولم يُحرك عالماً مسلماً

وقف المسلم تائهاً أمام المعادلة العلمية، رغم أنها حَوَتْ من الحق ما حواه الخلق كله منه، وبقيت رغم ذلك دون تفسير ...!

(إن صح أن فينا عُلماء) ساكناً في الدعوة إلى ذلك (لا علماء الأزهر ولا غيرهم، لأنهم يعانون ما تعاني الأمة في مجموعها من تخلف معرفي). فلم نُجاوز ما بعد المعادلة العلمية قيد أنملة، ولم نستقِ منها (ويا للحسرة) سوى الظاهر الذي لُعن الكافر لأجله.

وتبقى مسألة واحدة تخص أمر التوصيف الرياضي للكون وللطبيعة، وهي قَسَم الله تعالى بالأعداد الزوجية والفردية في سورة الفجر (والشفع والوتر). ورغم أن لهذا دلالة عظيمة، نوجز هنا بيان بعض المقصود بهذا القسم لأهميته. وهي أهمية تتضح أكثر فأكثر إن وُضعت جنباً إلى جنب وخاتمة سورة الجن (وأحصى كل شيء عدداً).

فالإحصاء لا يعني فقط الإلمام بعدد الشيء الذي يجري إحصاءه، وإلا فانظر لقوله تعالى (لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) فذكر الإحصاء ثم العدّ. وإنما يعني الإحصاء الإلمام بكل تفاصيل هذا الشيء، كقولك (المجلس القومي للتعبئة والإحصاء). وهو مجلس لا يقتصر عمله على بيان تعداد السكان في مصر (91 مليون نسمة مثلاً)، بل يتخطى ذلك بكثير ليُفصِّل أن هذا العدد 60 % منه ذكور و40 % منه إناث، وأن 60 % من هذه الأمة دون الخامسة والثلاثين من عمرها، وأن حملة الماجستير والدكتوراه بلغوا 13 % من هذا التعداد، وأن ما يقرب من نصفه أميون، وأن تسعة ملايين منهم فاتهم قطار الزواج، وهكذا. والأمر لا يقتصر على عمل هذا الجهاز وحده، بل على كل شيء تقريباً. فانظر مثلاً التحليل الطبي الذي يجريه الفرد ليعرف حاله الصحية، فتجد إزاء أسماء الظواهر الصحية التي يتحقق منها الفرد، توصيفاً عددياً لها. فأرقام إنزيمات الكبد مثلاً لا يجب أن تتجاوز 45 – 60 ، ورقم الصفراء في الدم لا يجب أن يتجاوز في الحالة السوية 5 ، وكذلك السكر لا يجب أن يتجاوز –150 120، وهكذا. فكل شيء له توصيف عددي. ولهذا ربما كان بآية سورة الجن إشارة لهذا التوصيف العددي للوجود بمجمله، وسبباً لقسم الله بالأعداد.

في السطور القليلة التالية، سيبرهن الكاتب على وجهة نظره، والقائلة بتجسد آثار أسماء الله وصفاته في مجمل بنود الوجود، وأن ذلك الوجود على رحابته وثرائه اللانهائيين، قد وُجد على هذه الصورة ليمثل طريقاً إيمانياً أوحداً، صارماً وجميلاً، لمعرفة الله، وهو الطريق الذي تستجيب به قلوب المؤمنين لتلك المعرفة.

صفة الجمال الإلهي كمثال (إن الله جميل، يحب الجمال) رواه مسلم

في كتابه (ما وراء العلم)، يصف البروفيسور جون بولكنجهورن أستاذ الرياضيات الفيزيقية بجامعة كمبردج ملمحاً أساسياً في الوصول للمعادلة الصحيحة، فيقول في صفحة 81:

لقد قضى بول ديراك paul.dirac حياته بحثاً عن معادلات جميلة. وفيما لا يجد الكثيرون هذا المعنى مقبولاً فإن لجمال المعادلات قيمة لا تُنكر بيننا نحن الذين يستخدمون لغة الرياضيات. وهي خصيصة مثلما هي الحال مع سائر صور الجمال، من الصعب وصفها رغم سهولة الإحساس بها، لكن جوهرها الإيجاز والرشاقة اللذان يعطيانها عمقاً.

يقول ديراك: «أنه أكثر أهمية أن نحصل على معادلات تتصف بالجمال، عن أخريات مطابقات للتجربة».

لقطة من مؤتمر الفيزياء ببروكسيل – أكتوبر 1927 ، ويظهر ديراك خلف كتف آينشتاين الأيمن .... أيامّ غيرت من صفحة الدنيا

أما لو كانت معادلتك قبيحة، فليس لك أمل فيها على الإطلاق. فلا نفتأ نواجه حقيقة أن المعادلات الجميلة هي القادرة على وصف الطبيعة. ثم يتابع بولكنجهورن في صفحة 103 الفكرة ذاتها قائلاً: «عندما يطرح العلماء أبحاثهم العلمية في الدوريات المحترمة، تراهم ينتهجون النهج التقليدي المعروف، أما عندما يجري الحديث فيما بينهم، فترى الواحد منهم يقول: «هذه المعادلة بالتأكيد صحيحة»».

وهو بذلك يصف معادلة جميلة رشيقة، استلهم بها غالبا قبل وقت طويل من تحقيقها علمياً. ورغم أن شعور كهذا قد لا يكون صحيحاً على الدوام، إلا أنه شعور مؤكدٌ من تجاربنا جميعاً وبصورة تدعو إلى الدهشة.

ثم يتابع في صفحة 105 قائلاً: فالمعايير التي تُقيَّم بها النظريات الفيزيقية تمهيداً لقبولها، هي البساطة والسلاسة. ذلك أن التعقد والافتعال يُعتبران سقطتان لا تُغتفران في دينا العلم. فلقد تعلم الفيزيائيون أن النظريات الناجحة حقا تتسم دائما بكونها مُعبِّراً عنها في معادلات ذات صيغ رياضية "جميلة" (انظر الفصل السادس). إن ثلاثة قرون من البحث في مجال العلم تؤيد هذا الرأي، لدرجة أنه في هذا البحث الدؤوب عن الجمال في المعادلات الرياضية ما هو أكثر من إحساس بالجمال. إن سبب اعتقادنا بعثورنا على أفضل تفسير للظواهر الفيزيائية بهذه الطريقة ، يأتي من تجربتنا بأن مثل هذه النظريات لا تفتأ تُبدي أن بها ثراءً يتجاوز الظاهرة التي كانت مناط البحث. ففي دنيا العلم، الجمال خير، لأنه أثبت أنه الأكثر عطاءً. إن بحث ديراك طوال حياته عن أجمل المعادلات لهو دليل على ذلك، ومن قبله آينشتين في بحثه لثمان سنوات على هذا الوجه لاكتشاف النظرية النسبية العامة.

هذا العطاء اللا محدود يعني ضمناً أن النظرية العلمية تهدف إلى أمر ما، أن هذه المعادلات الجميلة تصف بالفعل أحد خصائص الحقيقة. اهـ

ولم يكن بول ديراك وحده هو الذي ذهب مذهب الجمال في المعادلة العلمية وأحقيته على التجربة، وصوابه عنها، وإنما شاركه المذهب العلمي ذاته حفنة من أكابر العلماء على مدار القرن العشرين. منهم البروفيسور موراي جيلمان Murray.gell-mann والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء، ومُكتشف أحد البنى دون الذرية Atomic.building.blocks بالغة الأهمية وهو الكواركات Quarcks، والذي يمثل الوحدات البنائية للبروتونات والنيترونات بنواة الذرة. وهو يؤكد على ما قاله بول ديراك، ففي لقائه الذائع في منتدى TED، ثم في لقاء له آخر بكوكبة من صفوة المجتمع بجامعة سكرانتون Scranton الأمريكية يقول: تمثلت التجربة الجديرة بالانتباه في مجال الفيزياء، في كون الجمال Beauty معياراً عظيم الكفاءة في تحديد أي النظريات هي الصائبة. ولمَّا طَرَحَ تساؤله عن علَّة ذلك، أجاب بما حدَثَ معه هو ومجموعته العلمية قائلاً: لقد طرحَتْ مجموعتنا العلمية نظريةً عن القوة الضعيفة weak.force ، ناقضتها سبع تجارب عملية هامة، وأريد منكم أن تحصوا معي هذا العدد ...، سبع تجارب عملية هامة. لقد نشرنا نظريتنا هذه قبل حتى أن نعلم بإجراء هذه التجارب، إلا أننا بغض النظر عن ذلك كنا متيقنين أنه مادامت النظرية بهذا الجمال، فيقيناً ستكون صحيحة. وهذا ما كان. فحدَثَ أن ثَبُتَ لاحقاً خطأ هذه التجارب العملية السبع، وصحَّت نظريتنا الجميلة.

ويستطرد جيلمان قائلاً: آينشتاين هو الآخر ما كان يُبالي في كل مرةٍ يُنقل إليه عن تجربة خالفت وناقضت

الصورتان العلويتان: موراي جيلمان يحاضر بجامعة سكرانتون عن الجمال وعلاقته بمعادلات الفيزياء، الصورتان بالأدنى: حديث جيلمان في منتدى TED عن الجمال وعلاقته بالحقيقة العلمية في الفيزياء

صورة لخمسة من حائزي نوبل في العلوم ، ينتمون لنفس الجامعة التي ينتمي لها أحمد زويل Caltech.university. ويظهر العالم موراي جيلمان الثاني من يسار الصورة مرتدياً ميدالية نوبل

نظرية النسبية (وعلى الأخص تجارب D.C.Miller)، إذ كان يجيب في كل مرة عن هذا قائلاً: «دعكَ من هذا .

فالنظرية جميلة للدرجة التي تُحتِّم كونها صائبة» اهـ

ثم يختم جيلمان قائلاً: «وهذا ما يجعل لمسألة الجمال في العلم، قَدَمَ صِدْق».

المقصد من ثلاثة الاستدلالات السابقة، بيان تجلِّي صفة الجمال الإلهي وكونها عَلَماً على الحقيقة العلمية، بحيث يمثل هذا الجمال إشارةً للعالم أي السُبُل يسلك، وأي الفروض يبدأ به تجاربه. والنقطَة هنا إذاً أننا إن عكسنا الآية، فإننا أمام باب مُبهِر لاستشعار صفة الجمال الإلهي، عن طريق دراسة تفاصيلها وآثارها في المعادلات العلمية الصائبة بجمالها، وفي الطبيعة التي جسَّدت آثار هذا الجمال المُكرَّم. لا في الحديث عن هذا الجمال الإلهي (وهو أمر أهمله مسلمو اليوم بمنتهى التقصير) بعلم الكلام، ولا باللجوء للقواميس والمعاجم اللغوية (ولكن بالحق الذي في الخلق طبقاً للقرآن). كما يلفتنا هذا الاستدلال لأن آثار أسماء الله وصفاته ومن ضمنها الجمال، قد تجلَّت في عموم الخلق لا في صور الجمال المعهودة وحدها (كالحدائق والطيور وما إلى ذلك). وما كان من سبيل عملي للتعرُّف على تلك الآثار سوى كتاب الكون المفتوح والذي خُلق بالحق كله ، ولا كانت تُدرَك على الوجه الذي يُريده الله تعالى، سوى بالعلم. فتجسَّدت في المعادلات العلمية، مثلما تجسدت صفة الرحمة الإلهية في الظاهرة الكونية المسمَّاة بالمطر.

وليس الجمال الإلهي هو الأوحد في هذا النهج، وإلا فهناك الإتقان الإلهي هو الآخر، ولتنظر أيها القارئ لهذه السطور كيف عرَّف الرب نفسه فقال (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ). فكيف نُدرك صنعة الإتقان هذه بتفاصيلها في الجسيمات دون الذرية ، وبثرائها في المجرات الكونية، وفي كل تفصيلة من تفاصيل الخلق والإيجاد في المادة وفي الإنسان بنفسه الباطنة، دون أدوات علم النفس التجريبي، ودون استخدام المجهر الدقيق والمرقاب الفلكي، أم كيف نحيط بسلوكياتها واستجاباتها، من دون مجهر الفيمتوثانية، وبغير رصد وتوثيق تلك المشاهدات جميعاً في اللغة الوحيدة التي يتحدثها العلم، لغة المعادلات العلمية والرياضية ... ؟!!

إن الاسم الوحيد الصائب لهذه العلوم التي تَدرُس تفاصيل الوجود كله، لهو اسم (علوم الربوبية) أو العلوم التي أطلق عليها القدماء (توحيد المعرفة والإثبات). وهي الفرع من علوم التوحيد المختص بمعرفة الإله على حقيقته، وإثبات ما ينبغي له. فإن يكن الإله قد خلق كل ذلك بالحق، ثم تغافلنا عمداً عن دراسة هذا الحق بتفاصيله رغم ندب القرآن لهذا في غير موضع منه، فكيف سنستشعر آثار الصفة الإلهية كإبراهيم ونحن لم نرها ونعرف بها (كالذرات والفيروسات والمجرات) ؟. وكيف سنتعرف إلى خِلقة الله في كل بنود الوجود، ثم هدايته وتقديره وتسويته وعدله ورحمته ..... الخ، بدون أدوات العلم ومعادلاته؟.

عجيبٌ أمر المسلمين اليوم .!، فأي دين غير دين الإسلام أمر المؤمن (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ)؟، وأن ينظر إلى ما زرع (أَنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ). بل وأجمل واختصر في آية جامعة، فقال تعالى:

(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ) فأي دليل من القرءان نفسه أكثر من هذا ؟، وأي حيرة وبلبلة أغرق المسلمون أنفسهم فيها بلا داع بالتعامي عن هذا كله؟.

إلهنا .... لقد قصَّرنا والله وفرَّطنا، فصفحك وغُفرانك.

والسؤال الأخير ..... إن كان كل هذا الوجود الحي هو آثار ومقتضيات إبداع الله وعلمه وحكمته وتقديره وخلقه وإبرائه وتصويره وهدايته ووكالته وقيُّوميته على كل شيء فيه، وجماله، وألقينا بكل ذلك وراء ظهورنا وخالفنا القرآن، لنبحث عن معرفته بين دفتي المعاجم والقواميس العتيقة وكُتب الكلام، فما الذي تبقى لنا من العلم به إن جهلنا كل ذلك؟

تعريفات لُغوية .... ؟!

فمتى إذاً نشرع في تعليم أبنائنا وأجيالنا الناشئة سبيل معرفته المرتضاة ؟